فضل المستشرقين

على اللغة العربية

كتب الدكتور حسين الهراوى فصلا فى مجلة « المعرفة »(١) يحذر فيه شبان الشرق مما يكتب المستشرقون ، فناقشناه فى جريدة « البلاغ » بكلمة بينا فيها فضل المستشرقين على اللغة العربية ، فعاد فراجعنا فى مجلة «المعرفة»، وراجع الدكتور هيكل فى جريدة «السياسة»، مصراً أشد الاصرار على رمى المستشرقين بالسعى لتمكين الاستعمار فى الشرق ، والعمل على تقويض القومية الاسلامية .

وأنا أحب أن أقول كلمة ختامية فى هذا الموضوع : وأصرح بأنه لا عار على المستشرقين فى أن يكونوا طلائع لأممهم فى الشرق ، لأن العالم كله ميدان صالح لطلاب المجد والملك من جميع الأجناس . والاستعمار — كما قلت غير مرة — شريعة إنسانية يفرضها القوى على الضعيف، فمن آذاه ذلك فليتسلح بسلاح القوة ، وليناقس الأقوياء كيف شاء ، وليعلم قومى — إن سرهم أن يعلموا — أنه ليس فى الدنيا حق وباطل ، ولكن فيها ضعف وقوة ، والذئب لا يظلم الحمل حين يفترسه ، كما لا نظلم نحن الحمل حين نشويه على السفود ، بل تبلغ بنا المكابرة أن نذكر اسم الله حين نذبحه مطمئنين إلى أن ذلك حق مشروع ، وهو كذلك !

فليس من الرجولة — إذن — أن نكتفى بالبكاء والنحيب كما شاهدنا عدوان الغالبين، فتلك سجية النساء ، ولكن علينا أن نغالب ونصارع ونقاتل ، حتى نقتنع حقا من الجد فى الحياة .

ذلك جانب من المسألة ، أما الجانب الثانى وهو أثر المستشرقين فى نهضة اللغة العربية ، فاننا نصرح بأن جهود أولئك القوم من العناصر الحية جداً فى الدراسات العربية، وقد عرفت من بينهم رجالا يصلون النهار بالليل فى الدرس والتحصيل ، وعرفت من بينهم أفراداً لا أبالغ إذا قلت بأنى لم أر لهم نظيراً فى الشرق ؛ وقد كتب أحد أعضاء بعثة الجامعة المصرية كلمة فى « الأهرام » منذ أسابيع ، ذكر فيها : أنه لم يعرف أحداً من المستشرقين فى باريس ، فأسفت من الأسف ، لأن المستشرقين فى باريس هم خير الأساتذة هناك على الاطلاق، وقد لاحظت — وأنا أدرس فى السوربون — أن أعظم أساتذة جامعة باريس هم الأساتذة الذين يدرسون الآداب الأجنبية ، ومن أعظم من عرفت : المسيو تونلا الذى يدرس علاقة الأدب الفرنسى بالأدب الألمانى والانجليزى، فدانى ذلك على أن المقارنات لها فضل عظيم فى إيقاظ الأذهان والعقول،

(١) راجع العدد الماضى (يوليو سنة ١٩٣٢)

فليس من المستغرب إذن أن يكون اهتمام المستشرقين بدرس الاداب الشرقية مما فتق أذهانهم، وجعلهم من أعلام قومهم فى فهم عقليات الشعوب .

ولا أكتم القارىء أنى قضيت أيامى فى باريس فى نضال وجلاد مع المستشرقين الفرنسيين، ولقيت من بعضهم عناداً أضجر نفسى وقلبى ، ولكنى لما عدت إلى وطنى أخذت أنلمس جهود المواطنين فى خدمة اللغة العربية فلم أرها تفوق السراب الخداع، وصرت أتذكر المسيو دمومبين الذى أعد لنفسه مكتبتين غنيتين: إحداهما فى باريس لأيام الشتاء، وثانيتهما فى هوتو لأيام الصيف ، والمسيو مرسيه الذى يجده الزائر فى مكتبه فى جميع الأوقات ما عدا ساعات الطعام ، وهى عنده لحظات ، والمسيو ماسينيون الذى يكاد يعرف كل شىء عن آثار العرب والمسلمين ، والمسيو كولان المتوقد الذهن الذى يطالعك بالرأى الصائب والفكر العميق .

لكم أن تقولوا إن هؤلاء مغرضون يخدمون أممهم قبل أن يفكروا فى خدمة الشرق ، ولكن لا تنسوا أن هؤلاء أوقدوا فينا نار الحماسة لخدمة اللغة العربية ، وعلمونا من مناهج البحث وطرائقه ما لم نجد له مثلا فى المعاهد المصرية التى لا يجرى فى أروقتها غير قيل وقال !

وأنا بعد هذا موافق للدكتور الهراوى فى بعض اتجاهاته ، وليس من الزهو فى شىء أن أعلن أنى أول باحث شرق قارع المستشرقين فى عقر دارهم ، وصرح فى مقدمة رسالته بأنه جاء لتصحيح أغلاط المستشرقين ، وأنا أفرض على الباحث الشرق أن يقرأ أبحاث المستشرقين ومعه عقله ومنطقه ، وأكره له أن يحاكيهم فى غير فهم ولا تبصر كما يفعل بعض الناس !

والمستشرقون رجال نبتوا فى أمم قوية ، ومصاحبتهم نافعة جداً لمن يريد الاستفادة من عثرة الأقوياء ، فإن القوة تعدى كما يعدى الضعف ، والصاحب القوى أنفع من الصاحب الضعيف .

أليست هذه الدعوة أنفع من دعوتك يا دكتور هراوى حين تحرض شبابنا على أن يغمضوا أعينهم عما يكتب المستشرقون ؟ إنك لتدعوهم إلى القناعة بالدراسات المصرية والشرقية ، والقناعة شر ما يوصى به الناصحون ؛ وهل افتقرنا إلى حد أن نضرب صفحاً عما يكتب الأجانب عن لغتنا وأدبنا ، مع أنه لم يوجد عندنا إلى اليوم كتاب واحد يشبه كتاب للمسيو بروكلمان فى مصادر الاداب العربية ؟

عد لى عشرة أشخاص يخلصون للأدب العربى كما يخلص مئات الفرنسيين للأدب الفرنسى، إنك إن فعلت فسأوصى معك شبابنا بالاكتفاء بما يكتبه أولئك العشرة المصطفون !

وبعد، فستقول إنى كتبت ما كتبت وفاء للأساتذة الذين تلقيت عنهم من المستشرقين ، وأنا والله ياصاح يسرنى ويشرح صدرى أن تعرف أنى لأساتذتى وفى أمين ، والسلام . ؟

زكى مبارك